أسـامة

بإحدى القرى كان يعيش الشيخ محمود رفقة زوجته الحاجة صفية، يقضي يومه مترددا مابين البيت والمزرعة التي ورثها عن والده.

تمضي السنين، والزوجان راضيان بالعيشة التي يعيشونها، يرتشفان سويا حلو الأيّام ومرّها، تلك الحياة التي رزقتهم بابنين فأحسنا تربيتهما.

فكان عمّار الابن الأصغر يذهب رفقة والده إلى المزرعة، ليساعده في تفقد شؤون الأبقار والماعز التي كانوا يملكونها، ثم يسقي الأرض أو يحرثها ويجهزها لموسم البذر، فصارت تربطه علاقة بتلك المزرعة التي أصبح يحن إليها، ويهتم بشؤونها عوضا عن أبيه الذي كان يكتفي بتوجيهه ونصحه. أما أسامة فقد اهتم بمواصلة دراسته.

في أحد الأيام ذهب عمّار إلى المزرعة في الصباح الباكر كعادته، إذا به يصادف فتاة وهي في طريق العودة إلى بيتها، كانت قد ملأت جرّة ماء من العين المجاورة لمزرعة الشيخ محمود، وجه عمّار نظره نحو الفتاة، فإذا هي ابنة القرية «بهية» التي لطالما قيل عن جمالها الكثير، لكنّه لم يصدق، أو بالأحرى لم يراها وهي تقف أمامه شامخة كجذع النخلة، لم يلمح جمالها كما هي الآن بعيناها الحوريتان، ووجهها الصافي، وبشرتها التي تنافس صفاء القمر، بشعرها الأسود الذي تدلى على كتفيها متمردا على خمارها المزركش بألوان الأزهار قد وضعته على

رأسها محتشمة.

في لحظة أوقعت بنفسه أثرا، شيئا لم يحسّه من قبل، نوعا من الانجذاب والميول، وعند عودته إلى البيت صرّح لوالدته بأنّه يرغب في ابنة الجيران «بهيّة» زوجة له، راحا الوالدين يخطبا الفتاة من أهلها فوافقوا.

هكذا سبق عمّار أخاه الأكبر أسامة إلى خطبة الفتاة التي أحبّها في هدوء، الفتاة التي كان ينتظر أن يهيأ لها بيتا وحياة تليق بجمالها، لا تلك الحياة التي تبقي جمالها حبيس القرية، فلطالما كان أسامة يرى «بهيّة»، يحلم بها وهي بفستانها الأبيض تزف إليه، يحلم بها برفقته تكتشف أسرار العالم، فاتحة ثغرها العريض لتهديه ابتسامتها، هكذا رسم صورتها التي احتفظ بها إلى أن يستطيع رأيتها في الواقع، لكن ما العمل وقد فازبها أخاه الأصغر الذي لم يراها إلاّ لتوه، الذي لم تأرقه في أحلامه، ما الفائدة من البقاء في هذه القرية التي أصبحت أجنبية عنه وأنكرته في لحظة من الزمن؟ قرّر أسامة الرّحيل بعد زواج أخيه.

بعد رحيل أسامة مات الشيخ محمود، تاركا الحاجة صفيّة تصارع الحياة رفقة ولدها عمّار وزوجته «بهيّة»، لكن سرعان ما أصيبت الأم صفية بمرض ألزمها الفراش لترحل متأثرة بمرضها.

حزن عمّار لفقدان والده، والدته، حزن لرحيل أخاه، لزم البيت أياما، مما جعل زوجته «بهيّة» تقلق عليه، فراحت تحاوره قائلة: «أرجوك يا عمّار رحل من رحل، لكن نحن هنا، فانظر إلى المطلوب منك، فهناك أولاد في انتظارك، لا تنسى المزرعة التي تركها والدك أمانة لديك».

في يوم من الأيام، نهض عمّار من سباته باكرا وخرج قاصدا المزرعة وقد انكشف النهار، عند وصوله إلى المزرعة، رفع رأسه إلى ضوء الشمس وأهداها ابتسامة واسعة ممزوجة بين الآسى على فقدان الأحبة وبين أمل تجدد الحياة والسعادة، ثمّ طأطأ رأسه في اتجاه الأرض، أخذ حفنة من التربة مخاطبا إياها وهي تنسل من بين أصابعة: «أعدك أيتها الأرض أنّني سأجعلك جنّة من أجل أخي أسامة، وفي تربتك هاته سأغرس أزهار الفل، والأقحوان وسأنتظر الربيع لتنمو الأزهار وأقطف إحداهن، منك فقط سأقطف زهرة لأهديها إلى بهيّة».